الفنان إسماعيل شموط

ذاكرة الحياة الفلسطينية

نبيل خالد الأغا

ثمة ارتباط وثيق العرى بين مأساة فلسطين بجميع مراحلها منذ نكبتها في عام 1948م، وبين المسيرة الشاقة لأحد ضحاياها الفنان التشكيلي إسماعيل شموط.

يقال: «وراء كل عظيم ألم عظيم»، وهذا القول ينطبق تماماً على هذا الفتى المشرد، الجائع، اللاجئ، المعذب، الذي ارتوى مبكراً من بئر الحرمان، فكان ذلك سبباً مباشراً لنبوغه في عالم الفن، معبراً باللوحة الناطقة عن معاناة شعبه الفلسطيني الذي ما برحت توابع نكبته تهز طمأنينة المنطقة برمتها.

إفتتاح معرض للجداريات في الدوحة عام 2001

وثمة معانٍ عديدة لوفاته في شهر تموز/يوليو من عام 2006، بعدّ «رحلة جبلية.. رحلة صعبة» انطلقت بولادته في مدينة اللد الفلسطينية عام 1930م، وامتدت مسافة ستة وسبعين عاماً، وانتهت بتغييب جثمانه في الأردن.

وفي ذات الشهر التموزي الملتهبة حرارته، غابت العديد من الوجوه الفلسطينية التي سجلت حضورها الفاعل في الحياة الدنيا، أمثال الشاعر عبدالرحيم محمود (1913ـ1948)، الروائي غسان كنفاني (1936ـ1972)، المؤرخ عارف العارف (1892ـ1973)، مفتي فلسطين الحاج محمد أمين الحسيني (1897ـ1974)، الشاعر توفيق زياد (1929ـ1994)، وغيرهم. هذا إضافة إلى أن مدينة اللد مسقط رأس الفنان شموط سقطت في أيدي الصهاينة في ذات الشهر من عام 1948م.

وقد أكرمه الله تعالى بأن أودع في قلبه وعقله وأصابعه موهبة عشق الرسم منذ نعومة أظافره، وقد لفت ذلك انتباه أستاذه الفنان داود زلاطيمو (1906ـ1999)، الذي تعهد موهبة تلميذه فنماها، ولقد كان جمال الطبيعة الذي أبدعته عظمة الخالق في بساتين اللد وسهولها المزركشة بألوان الزهور مصدر الإلهام الذي اغترف منه الفنان الصغير مادته الخام، ومن ثم أعاد تكوينها فانعكست في لوحاته الطفولية التي رسمها قبيل النكبة فحملت جماليات المكان وبراءته.

ومن جانب آخر، فقد كانت الروح الجهادية التي سادت فلسطين قبيل نكبتها مصدراً آخر لإلهامه فرسم صور بعض القادة والمجاهدين، وفي مقدمتهم مفتي فلسطين وزعيمها الحاج محمد أمين الحسيني.

إلى أين؟!

مع بزوغ فجر اليوم الثالث عشر من تموز/يوليو نفذت القوات الصهيونية قرارها الحاسم بإجلاء أهالي اللد وَمَنْ لجأوا إليها من القرى المجاورة، ورابط الجنود على المشارف يسلبون النازحين ويجردونهم من كل منقولاتهم الثمينة من الحلي والأموال.

وتعرضت عائلة إسماعيل شموط المكونة من عشرة أفراد لمثل ما تعرضت له آلاف العائلات من تنكيل وتشريد أثناء مغادرتها حاملة همومها وأحزانها، وأثناء الرحيل إلى المجهول رحل إلى الابدية طفلها «توفيق»، فوارته التراب ومضت، ولكن إلى أين؟!، وظلت هذه الـ «إلى أين» تطارد العائلة وتلهب قلوب أفرادها حتى صاح رب العائلة: إلى خان يونس جنوباً أيها الأحبة، فإن لي بها صديقاً لا أخاله إلا مرحّباً بنا، ولم يخب أمله فقد رحب المضيف بضيوفه، وأوسع لهم قلبه وبيته ومن ثم انتقلوا للاقامةِ في مخيم خان يونس للاجئين.

لم يذكر إسماعيل ـ وربما لم يتذكر ـ اسم ذلك الصديق الخانيونسي الذي استضافهم وأكرم وفادتهم، وإن ظل وفياً لخان يونس وسكانها كلما التقى أحداً منهم.

واستعاد في مخيلته صوراً مروعة وحكايات مؤلمة تركت ندوبها ومرارتها في أعماق الشاب العشريني الذي بدأ يسجل بريشته بعض وقائعها.

ولكن ماذا عن الواقع المعيشي؟

ثلاثة جنيهات فلسطينية (استرلينية)، هي مجمل «الثروة» التي تمتلكها الأسرة، والتي ستواجه بها المستقبل المعيشي.

حمل إسماعيل على كاهله جزءاً من المسؤولية، لوحاً عريضاً من شجرة الصبار التي تثمر ثمار التين الشوكي، قلّم شوكه، وغرز فيه أعواداً رفيعة بها تفاح صغير مكسو بمادة حلوة المذاق، غليظة القوام، حمراء اللون، وأخذ يطوف بها منادياً: حلاوة الشام ما احلاها.. حلاوة الشام ما احلاها!.

وتعرفت عليه وعلى حلاوته مبكراً، كنت طالباً ابتدائياً بمدرسة خان يونس، وكان إسماعيل ينتظر قرع جرس الاستراحة على باب المدرسة مع العديد من الباعة، وكنت أهرع لأشتري منه تفاحة شامية بمليمين!.

ولكن ذلك المشهد لم يستمر طويلاً، فبعد عدة أشهر افتقدنا البائع «اللداوي»، وعلمنا فيما بعد أنه أضحى معلماً للرسم بإحدى مدارس اللاجئين، وقد تحسنت أحوال أسرته بعد افتتاحها «استوديو» تصوير كان هو الأحدث والأكفأ يومئذ، وأذكر من إخوته جميل وإبراهيم وابن عمومتهما أمين، وقد استثمروا أيضاً براعتهم في فن الخط فتعهدوا بكتابة أسماء المحلات والمكاتب والدوائر والهيئات، إضافة إلى تخطيط اليافطات التي كان المتظاهرون يرفعونها في المناسبات الوطنية المختلفة.

وبعد أن هدأت إلى حد ما عاصفة النزوح، واستقرت أوضاع الأسرة «الشموطية»، أتيحت لإسماعيل الإمكانات المادية، فأخذ يسجل صور المأساة وتوابعها، وكذا الحياة الجديدة في المخيم، فاتخذ من الرسم وطناً آخر يخفف عنه وطأة الواقع المؤلم، وكوّة أمل يطل منها على المستقبل المستكن في رحم المجهول، ودفعه طموحه للالتحاق بقسم الدراسات الحرة بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة (تأسست عام 1906)، فدرس فن التصوير الزيتي، وتلقن أصوله وأتقنه، واستثمر فترات فراغه فعمل مساعداً لرسام إعلانات عن الأفلام السينمائية، بدأ بثلاثة جنيهات شهرية وتدرج حتى وصل إلى عشرة، وبذلك حقق دخلاً محترماً يغطي تكاليف إقامته بمصر. وتتلمذ بالكلية على أساتذة أكفاء منهم: حسين بيكار، وحسن البناني، ويوسف كامل وغيرهم.

وألحّت عليه فكرة إقامة معرض شخصي للوحاته الزيتية في مدينة غزة.

وتقديراً للفن وللفنان قام الحاكم المصري العام لقطاع غزة يومئذ بافتتاح المعرض في نهاية شهر يوليو/تموز من عام 1953، في قاعة نادي الموظفين بوكالة الأونروا، وعلقت أكثر من خمسين لوحة على جدران القاعة، وتفاعل الزائرون معها تفاعلاً غير مسبوق، لأنها كانت انعكاساً لأحوالهم المأساوية.

المربي سعيد فلفل تنبأ بمستقبل واعد لشموط، وكتب العبارة التالية في سجل الزوار «شعبك ينتظرك، وأنت فنان تؤمن بالشعب، فإلى الأمام في تحقيق رسالتك.. لك المجد والوفاء».

هذا وقد شهد عام 1954م مشهداً نوعياً في مسيرة شموط الفنية دفعت به إلى ميدان الشهرة والنجاح، فقد تبنت الجامعة العربية إقامة معرض فني مشترك بنادي الضباط بحي الزمالك الراقي بالقاهرة، يشترك فناننا مع زميلة له تدعى تمام الأكحل، وزميل آخر يدعى نهاد السباسي.

ومما ضاعف من أهمية المعرض افتتاح الزعيم الراحل جمال عبدالناصر له وثناؤه على لوحاته الصادقة التي تناغمت مع عنوان المعرض «قضية فلسطين»، وقد أمت المعرض أفواج متتالية من الزوار بمختلف مشاربهم، وشكل نجاحه دعامة مادية ومعنوية للفنان شجعته على إقامة سلسلة متتالية من المعارض الهامة التي أقامها في عشرات العواصم والمدن العربية والعالمية.

وفي تلك الأثناء قدمت له الحكومة الإيطالية منحة دراسية على نفقتها تشجيعاً له، واعترافاً بموهبته، وحصل على دبلوم أكاديمية الفنون الجميلة بروما.

وأتاحت له دراسته المنهجية بالكلية، إضافة إلى وجوده في إحدى عواصم الفنون العالمية الشهيرة فرصة الاطلاع على روائع الفن العالمي التي أبدعتها قرائح بعض العمالقة الذين تأثر بهم شموط، وتركت بصماتهم في إبداعاته وفي مقدمتهم فان جوخ، وجويا، وبتشلي، وليساندو، وغيرهم.

وضمن التداعيات الإيجابية لمعرض القاهرة، ذلك التعارف المبدئي الذي تم بين إسماعيل شموط وزميلته تمام الأكحل مبعوثة جمعية المقاصد الإسلامية ببيروت، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى ارتباطهما الشرعي معاً، حيث امتزجت روحاهما في رحلة حياة وإبداع، وتعاهدا على مواصلة المسيرة معاً، وأصبح اسماهما علمين محلقين على سارية واحدة كرائدين اقتحما بداية الطريق وأول من خاضا مضمار الفن التشكيلي المعاصر.

ومعلوم أن فناننا استخدم المرأة كرمز تمثل الشعب، وليس الثورة والأرض كما هو الحال عند باقي فناني الأرض المحتلة، والطريف في هذا الرمز - كما يقول الفنان سليمان منصور - أن هذا الرمز لم يظهر في أعمال شموط إلا بعد زواجه من تمام عام 1959، وفي عام 1960 عمل أول لوحة مبنية على هذا النسق، وهي لوحة «الربيع الذي كان»، وتمثل ثلاث نساء يرقصن بالزي الشعبي الفلسطيني المطرز، وخلفهن أشخاص يقطفون البرتقال من يمين اللوحة والزيتون من يسارها.

الفن التشكيلي في فلسطين

هذا عنوان كتاب نفيس أصدره شموط في عام 1989، ويقع في زهاء ثلاثمئة صفحة من القطع الضخم، ويتضمن بالألوان ستا وستين وثلاثمئة صورة لستة وعشرين ومئة فنان فلسطيني، وفهرساً تفصيلياً بأسمائهم وأماكن وجودهم، ويعتبر الكتاب بحق مرجعاً مهماً وغير مسبوق في موضوعه وموضوعيته.

وقد تضمن - بين أمور أخرى - بداية تكوين الحركة الفنية التشكيلية الفلسطينية المعاصرة، وذلك عندما صار الفنان جزءاً من مجتمعه، يتحسس معاناته، ومآسيه، وأفراحه، وأغانيه، واقعه وأمانيه، تكونت اللوحة يوم صار المواطن يرى في اللوحة صورته ومعاناته وآماله وتطلعاته، لوحة ناطقة تحيي فيه روح الاعتزاز والفخار، وتشعل فيه روح الأمل في سبيل تحقيق الأماني الإنسانية والقومية والوطنية، وهذا لم يحدث إلا بعد عام النكبة.

ويرى شموط أن فناني فلسطين قبل ذلك التاريخ لم يتناولوا موضوع الوطن الفلسطيني والشعب الفلسطيني في لوحاتهم ليعبروا من خلالها عن بعض ما كان يجري في فلسطين من أحداث، فاللوحات التي أنجزت يومذاك هي لوحات أيقونية لصالح الكنائس والأديرة، أو لوحات لمناظر طبيعية أو سياحية وما شابهها.

وذكر أسماء أبرز الفنانين الذين برزوا قبل النكبة ومن بينهم: نقولا الصايغ، مبارك سعد، خليل حلبي، حنا مسمار، فضول عودة، جمال عبدالرزاق، خيري بدران،

> اتخذ من الفن وطناً آخر يخفف عنه وطأة الواقع المؤلم الذي يعيشه وشعبه

جزء من لوحة (تحية للشهداء)

محمد الدجاني، شريف الخضرا، أديب الزعيم، ممدوح الخياط، عبدالبديع صبح، فيصل الطاهر، نجاتي الحسيني، خليل بدوية، زلفى السعدي. إضافة إلى الفنان جمال بدران (1909 ـ 1997) الذي وصفه شموط بأنه «أستاذ جيل وقائد تيار فني»، وقد تخرج في مدرسة الفنون والزخارف المصرية عام 1927، وتقلد وسام القدس للثقافة والفنون والآداب عام 1990، وهو الذي رمم منبر صلاح الدين الذي تعرض لمحاولة إحراق صهيونية عام 1969.

وكان بدران أستاذاً للروائي الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا (1919 ـ 1994)، الذي يعتبر علماً من أعلام الحركة التشكيلية في العراق، وجرت بينه وبين شموط مراسلات ومناقشات.

الزميل الشاعر محمد عزالدين المناصرة ذكر في «موسوعة الفن التشكيلي في فلسطين في القرن العشرين» (2003)، أسماء واحد وعشرين فناناً من الأوائل، واعتبرهم «علامة مركزية في الفن الفلسطيني قبل عام 1948»، وفي مقدمتهم جمال بدران، وجبرا إبراهيم جبرا، ومحمد صيام، وفاطمة المحب، ومن بين معاصري شموط الذين غيبهم الموت: مصطفى الحلاج، محمد أبو صلاح، خليل صفية، وتوفيق عبدالعال.

ويرى نقاد الحركة التشكيلية الفلسطينية أن إسماعيل شموط هو المؤسس الحقيقي للحركة، أما جمال بدران وعدد من تلامذته، فقد ركزوا في أعمالهم على فن الكتابة ورسوم الوجوه والشخصيات والمناظر الطبيعية، ولم يتح لهم عرض أعمالهم الفنية قبل النكبة.

بيروت.. محطة العطاء

كانت بيروت في عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي تشكل بؤرة الحدث الفلسطيني والعربي، والقلب النابض للحركة الثقافية العربية الملتزمة، فكانت المحطة الخامسة التي ألقى فيها شموط عصا تسياره بعد اللد

وخان يونس والقاهرة وروما، وفيها قضى سنوات عطائه الوفير، ومنها انطلقت شهرته العربية والعالمية، ومكث فيها أكثر من عشرين عاماً كانت حافلة بالأحداث العربية الساخنة، كان من أبرزها إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية في عام 1964، وهزيمة حزيران/يونيو 1967، وكذلك الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان وحصار بيروت في عام 1982، وغيرها.

وتركت تلك الأحداث بصماتها الواضحة سلباً وإيجاباً على حياة شموط الفنية والشخصية، فقد تم تعيينه رئيساً لدائرة الثقافة والفنون بالمنظمة، وفي عام 1969 أسس وترأس الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين، فكان بفروعه الستة في فلسطين ولبنان وسورية والكويت وقطر والإمارات العربية، عاملاً مهماً في إذكاء النشاط الفني الفلسطيني (لا وجود لهذا الاتحاد اليوم!).

وفي عام 1971، تم إشهار الاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب، وانتخب شموط أميناً عاماً له، لكن ذلك الاتحاد لم يكن فاعلاً كما كان مؤملاً له (أين هو الآن؟!).

تفرّد باتخاذ المرأة رمزاً يمثل الشعب الفلسطيني وليس الثورة والأرض كما فعل فنانون آخرون

المراحل

أكد الفنان إسماعيل شموط في العديد من مقابلاته الإعلامية المختلفة، أنه مَرَّ خلال رحلته الفنية التي امتدت لأكثر من خمسين عاماً، بخمس مراحل مفصلية ارتبطت في مجملها بالمراحل التي مرت بالقضية الفلسطينية.

- المرحلة الأولى في عقد الخمسينيات، وهي مرحلة تداعيات المأساة، و اعتمدفيها الأسلوب الواقعي البسيط. ومن لوحاتها: «بداية المأساة»، و«سنعود»، وكذلك لوحة «إلى أين؟»، التي ركز فيها على الطفولة والشيخوخة، واحتلت مركز أيقونة في الوعي الفلسطيني، وهي مشحونة بالمشاعر والأحاسيس، وفيها بُعد شخصي لحياة شموط وأهله وشعبه، الذين طردوا من أرضهم، وقد نجح في تحويل الواقع الأليم إلى رمز قومي فاعل.

- المرحلة الثانية في عقد الستينيات، وهي مرحلة انطلاق الفلسطيني من حالة الحزن إلى حالة التحفز، ومن لوحاتها: «عروسان على الحدود»، و«طاقة تنتظر»، و«رقصة النصر».. وغيرها، حيث تألقت الألوان في اللوحة الواقعية، وأضحى الأسلوب تعبيرياً رمزياً.

- المرحلة الثالثة، مرحلة المقاومة الفلسطينية المسلحة، خاصة بعد عام 1967، وما أشاعته من أجواء في الحياة الفلسطينية مليئة بالأمل والفرح، ومن لوحاتها: «مغناة فلسطين»، و«اليد الخضراء»، و«الربيع».. وغيرها، لقد أدخل إليها دفء وحركة غنائية جديدة في التكوين، وامتدادات تصل إلى الأفق البعيد فيها إشراق وبهجة. وأضحى «فنان المأساة» هو عينه فنان المقاومة المعبر الصادق عن فرحة اكتشاف طريق النصر.

- المرحلة الرابعة في أواسط السبعينيات، والتي شهدت اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، ومجزرتي تل الزعتر وجسر الباشا، والعدوان الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في عام 1976، وقد ظهر في لوحات تلك المرحلة عنصر جديد هو عفوية التعبير، وغياب بعض عناصر الواقعية والعودة لحالة القلق والحزن، مما أدى للاعتماد على الألوان الحادة.

- المرحلة الخامسة، بدأت بعد عام 1982 أثناء إقامته بالكويت، وهي التي غلب عليها الاتجاه الرومانسي، ومن لوحاتها: «العازفة تنتظر»، و«الحياة مستمرة»، و«اليد الخضراء»، وقد ألهمته تلك المرحلة إنجاز عدد من اللوحات توقع فيها انطلاق الانتفاضة الفلسطينية الأولى في عام 1987، قبل انطلاقها فعلياً بثلاث سنوات.

- المرحلة السادسة، بإمكاننا إضافة هذه المرحلة، حيث سجل فيها الفنان تطورات القضية الفلسطينية بعد توقيع اتفاقية أوسلو. ويبدو أنه نزع إلى التجريد في كل ما يتعلق بالاحتلال الإسرائيلي، ومن لوحاتها: «معبر إيرز» (1997) و«الاحتلال» (2004)، و«الجدار» (2004)، الذي رصف فيه الفلسطينيين بكل فئاتهم وإصرارهم على خلفيات الفضاء الفلسطيني الأخضر، وقريباً من جدار الفصل العنصري الذي شيدته إسرائيل.

كيف يتولد فنّه؟

أجاب الفنان نفسه عن هذا السؤال بقوله: تكون النفس متأججة بمشاعر لا أستطيع إظهارها، لكنني واعٍ على بواعثها ومسبباتها أحياناً، وفي غالب الأحيان آتي باللوحة البيضاء دون سابق تصور، وأبدأ برسم الخطوط فتتحرك يدي وفق المشاعر المتأججة، فتولد أشكالاً، والأشكال تولد الموضوع، وتستمر عملية التوالد في مرحلة الرسم وفي مرحلة التلوين إلى أن تكتمل اللوحة. إلا أنني أتناول هذه المشاعر بكثير من الحذر خشية الوقوع في مأزق طغيان الموضوع على الفنية التشكيلية، وحتى لا يسقط العمل بالمباشرة الإعلانية. أما بالنسبة للألوان فلا أفكر في اللون الذي أختاره في أثناء عملية بناء اللوحة وتوالدها، وإني لأترك ليدي ولعيني تناول اللون بكل حرية، وهذه الحرية محكومة بتجربة فنية عمرها خمسون عاماً.

بعد إقامته المؤقتة في مدينة كولون بألمانيا، مدة عامين، حط شموط رحله النهائي في العاصمة الأردنية في عام 1994م، وبعد ثلاثة أعوام أتيحت له ولزوجه الفنانة تمام الأكحل زيارة فلسطين المحتلة (بتأشيرات إسرائيلية)، وقصدا مدينتي «اللد» و«يافا»، مسقط رأسيهما، وذلك بعد فراق قسري دام سبعة وأربعين عاماً، وتركت تلك الزيارة ندوباً عميقة في مشاعرهما وأحاسيسهما، حيث استيقظت في وجدانيهما صور المرارات والعذابات التي عاصراها أيام النكبة، ومن ثم إصرارهما وتصميمهما على ورود الحياة المحفوفة بتحقيق الآمال والطموحات

الوطنية والقومية.
ومنذئذ تولدت لديهما فكرة إقامة معرض غير مسبوق في الساحة الفلسطينية يتضمن إنجاز لوحات جدارية ذات مساحات ضخمة (200 × 165سم)، حتى تظل «صورة الوطن شعباً وأرضاً حية أمام عيون الأجيال القادمة، وأمام ضمائر الناس في كل مكان»، بحسب تعبير شموط، الذي رفع شعار «نحن الفلسطينيين.. الجدار الأبقى».
وقد عرضت تلك الجداريات في العديد من العواصم العربية، ومن ضمنها الدوحة، حيث أقيم المعرض في «غاليري بيسان» في الأول من شهر ديسمبر/كانون الثاني عام 2001م، وافتتحه السيد عبد المجيد شومان رئيس مجلس ادارة البنك العربي بحضور السيد ياسين الشريف السفير الفلسطيني الاسبق في قطر ، والسيد اشرف ابو عيسى رجل الاعمال المعروف «مدير الغاليري» وعرضت فيه تسع عشرة لوحة، منها إحدى عشرة لإسماعيل، وثمان لتمام، تحت عنوان «السيرة والمسيرة». وفي معرض كلمته في الندوة المصاحبة، قال إسماعيل: «إن اللوحة بالنسبة لي خطاب سياسي أدبي إنساني، ولكن بلغة تشكيلية، ويجب أن تهز القلب أولاً وبعد ذلك تبهر العين».
هذا، وقد حققت الجداريات شهرة واسعة في كافة المدائن، التي عرضت فيها، ووصفت بأنها التعبير الفني المتقن عن المشهد الفلسطيني كله، وجاءت بمثابة رد واعٍ ومتزن «لمفهوم المحرقة الذي أوجعت به الصهيونية العالمية آذانَ البشرية».
وربما تولد لديه إحساس مكتوم بأن يختم مسيرته الفنية الغنية بهذا العمل الضخم، الذي يتناسب مع ضخامة قضية فلسطين.
وهكذا نرى أن شموط الذي أبدعت يمينه رسم مئات اللوحات الخالدة الناطقة بكل لغات الأرض، والتي طافت به وطاف بها بقاعاً عديدة، ارتبط بعشق واله بفرشاته المطواعة التي أحبها وأحبته، ورأى فيها مترجمته التي ترجمت أعماق الألم المتبدي في صدره، وكذا إشراقة الأمل المشع بقوة في أفق حياته وحياة شعبه. وظل هذا العملاق وفياً لقضية وطنه، ومتفائلاً بالعودة للفردوس الفلسطيني المسلوب، برغم رداءة الزمن التي لم تهز إرادته الفولاذية، ولم تخب جذوة النور المشرقة في فؤاده وريشته.
وفيه وفي أمثاله من المحبين تصدق مقولة أنطون تشيخوف «إنْ كان في وسعك أن تحب، ففي وسعك أن تفعل كل شيء»، وقد أحب شموط وطنه وفنه وشعبه، وبذل كل حياته وإمكاناته في سبيل هذه الأقانيم الثلاثة التي ظلت بمجملها بوصلته الهادية حتى نفسه الأخير.
ولقد شاءت إرادة الحق تبارك وتعالى أن تسقط الفرشاة التي امتشقها بيمينه وصوبها تجاه الضمير الانساني لأكثر من نصف قرن في اليوم الرابع من شهر يوليو/تموز عام 2006م، في أحد مشافي ألمانيا إثر عملية جراحية في القلب، لقد رحل العملاق ولسان حاله يقول «لقد ذهبت إلى حيث يذهب الجميع، وبقيت حيث يبقى الخالدون»، وقد نعاه الكثيرون من الكتّاب والفنانين والصحافيين، وأقيمت حفلات تأبينية له في عدة مواقع أبرزها حفل مؤسسة التعاون ومؤسسة عبدالمحسن القطان والجمعية الملكية للفنون الجميلة بالمركز الثقافي الملكي بعمان، وتحت عنوان «إسماعيل شموط بين اللجوء والفن» أقيمت في الضفة الغربية فعالية تكريمية للفنان الراحل نظمها مركز اللاجئين والشتات «شمل»، والغاليري الافتراضي «المتحف» جامعة بيرزيت، وأوصت الفعالية - ضمن أمور أخرى - بإطلاق اسم الراحل على الساحات العامة والشوارع بالبلديات والمحافظات الفلسطينية، وإطلاق جائزة سنوية باسمه حول عمل فني تشكيلي، وتخصيص مقعد باسمه في الجامعات الفلسطينية.

تكريم الفارس

لقد حظي الفنان إسماعيل شموط بعدة ألوان من التكريم والتقدير أثناء حياته، فهو أول من حصل على درع الثورة الفلسطينية للفنون والآداب عام 1978م، ونال وسام القدس للثقافة والفنون والآداب من الرئيس الراحل ياسر عرفات عام 1990م.
كما حصل على جائزة فلسطين للفنون، إضافة إلى جوائز عربية ودولية، وله أعمال مقتناة في عدد من المتاحف العربية والأجنبية، وقد كرّمه المنتدى العربي في بيروت عام 2004م كأفضل فنان تشكيلي عربي، كما اختارته الأونيسكو واحداً من أفضل خمسة فنانين تشكيليين في العالم المعاصر.
ولا يغيب عن الذاكرة أن افتتاح الزعيم جمال عبدالناصر لمعرض شموط بالقاهرة يعتبر تكريماً استثنائياً، ربما لم يظفر به فنان عربي آخر. مع التذكير بأنه تم بعد مرور عامين اثنين فقط على بزوغ فجر ثورة 23 يوليو/تموز 1952م، وكانت سن شموط يومئذ لم تتجاوز الخامسة والعشرين ربيعاً.

أزاهير الوفاء

مختارات من أزاهير الحب والوفاء التي نُثرت في ذكرى رحيل إسماعيل شموط عملاق الفن التشكيلي الفلسطيني:-

- «لقد أمضى إسماعيل شموط أكثر من نصف قرن في البحث عن هوية فنية متداخلة مع هوية شعب حُرِمَ من التأمل الحر. في ذاته الإنسانية خارج ما أعد له من مصائر، إسماعيل فينا سيرة ومسيرة، ذات ذابت في الموضوع، وأقامت الموضوع في الذات، ومن فرط ما هو هو وليس هو في آن واحد، خيل إلينا نحن المثقفين في زيت اللوحة أننا شظايا قصائد أعاد الفنان تشكيلها وتجميعها في إطار. إن يد إسماعيل شموط هي التي ترى، وقلبه هو الذي يرسم».

محمود درويش

- «كنت فخوراً بأنني أعرف إسماعيل شموط، وإنه صديقي، ورفيق دربي، فهو إنسان مميز ومبدع، ومن صفوة أبناء جيله الذين عبروا الجسر بين الوطن

محمود درويش: إسماعيل إنسان مميز ومن صفوة أبناء جيله الذين عبروا الجسر بين الوطن والمنفى

والمنفى، وصمدوا في محنتهم، وتجاوزوا نكبتهم، وقضوا العمر في النضال من أجل استعادة شعبهم لعزته وكرامته الوطنية، ستنسى الأجيال القادمة أسماء رجال كثر من تاريخنا الفلسطيني الحديث، لكن اسم إسماعيل شموط سيبقى خالداً في ذاكرة الأجيال كلما وقعت أعينهم على لوحة من لوحاته، التي كان يحملها كالصلبان فوق كتفه».

شفيق الحوت

• «لقد استطاع إسماعيل شموط أن يؤسس لحركة وطنية جديدة بأبعادها السياسية والكفاحية والاجتماعية والثقافية، فعبر باللون والريشة عن ملامح المأساة والنكبة، وملامح الحلم الآتي، حلم التحرير والعودة، فكانت لوحاته المعبرة عن الهوية، وعن مرارة الواقع وعذوبة الأيام الجميلة التي لم تأت بعد، عن سر الليل المتفق عليه بين خطوات الفدائي وزهور الحنون، عن النشيد الكامل وفجر الاستقلال، وعن سيمفونية الصمود والأمل».

الرئيس محمود عباس

• «إسماعيل شموط هو الفارس الذي يختلف عن المحارب بأنه لا يترجل عن جواده أبداً، فما زالت ريشته تنتظر، ولوحته الأخيرة لم تنته، وهو يسأل طبيبه متى يستطيع العودة ليتمها، لقد استغل شموط موهبته ليذود

جزء من لوحة (عرس المقاومة)

بها عن حقه المغتصب، فالعمل الفني لا يقتل، ولا يُسيّل دماً، ولا يخلف ضحية، بل يغذي العقل، ويبدل صورة نمطية رسمتها الأذهان المعادية».

الأميرة وجدان علي

• «اسم شموط اسم من أسماء فلسطين المحببة الذي جعل النكبة والعرس والثورة ذاكرة باقية تفوح بألوانها على ألواح الرواية التي لم تكتمل، وإسماعيل شموط الذي دمروا الأشياء من حوله، لم يستطيعوا أن يدمروا روحه فانتصبت ريشته كالمنارة التي تؤذن للبقاء».

المتوكل طه

• «امرأة بحجم الوطن، موشومة بالحناء، وبثوب مطرز بالحكايا الأسطورية العتيقة، هذه هي لوحة إسماعيل شموط، جمع من البشر يطل عليك بالأعين والأيدي والإشارات والضجيج الجميل، قدود لفلاحات يتمايسن أمام الشجرات، الفتيات والشباب تعلي أرواحهم الدبكة والميجانا وصوت اليرغول، ورائحة الزعتر، إنه الشعر باللون والفرشاة».

جريس سماوي

• «بغياب شموط نعيش خسارة كبيرة، ليس فقط للثقافة الفلسطينية، بل للقضية بشكل عام، لقد كان أول فنان فلسطيني عبّر عن نكبة عام 1948م ومأساة الفلسطينيين داخل الوطن، وفي الشتات وأحلامهم، كما استطاع أن يلفت نظر الوجدان العربي إلى المعاناة الفلسطينية عبر لوحاته ورسوماته. أعمال شموط رافقت الثورة الفلسطينية، ومراحل الكفاح المسلح، وكانت على الدوام تعبر عن الجوانب الحضارية من كفاح الشعب الفلسطيني».

يحيى يخلف

• «إسماعيل شموط كان يحمل صينية الكعك ودفاتره المدرسية، ويمضي يبيع السكر لأطفال اللاجئين في مخيم خان يونس، فلسطيني يبيع السكر، فلسطيني في أيام البحر الميت يبيع السكر للبحر الأبيض المتوسط، في أكاديمية روما للفنون الجميلة كان إسماعيل شموط يرسم نار الشتاء الفلسطيني للشجر القادم من أضلاع سبارتاكوس».

معين بسيسو

• «إن مسيرة حياة إسماعيل شموط تعكس واحداً من مشاهد مآسي الشعب الفلسطيني، فقد كرّس حياته للنضال من أجل حرية شعبه، لقد عكس فناننا القدير كل مشاعره الوطنية في فنه، وهذا أحد أسرار إبداعه الذي أوصل الفن التشكيلي الفلسطيني إلى مستويات عالمية، ووضعه على الخريطة الثقافية العالمية. إن فن إسماعيل شموط يستحق التخليد، فهو ريشة فلسطين الحاضرة أبداً».

النائب محمد بركة

• «لقد ترك الفنان الراحل إسماعيل شموط إرثاً فنياً هو علامة بارزة في المسار الفني التشكيلي العربي والعالمي، وسيبقى لأمد بعيد في متناول الاهتمام والعناية من جانب النقاد وأصحاب الاختصاص في هذا المجال، ويمكن اعتباره مرجعاً للوافدين الجدد إلى دنيا الفن التشكيلي».

عمر فاضل

• «إسماعيل وتمام علامتان من اللهب الفلسطيني، صنعا فنهما بمادة حلم العودة إلى وطنهما (فلسطين)، كل ضربة من ضربات الفرشاة تحمل شيئاً من ذلك الحلم لتجسده من خلال صور يمتزج فيها الواقع بالخيال المرئي باللامرئي، الحسي بالحدسي، الشعر بالغريزة، الثقافة بالفطرة، فنهما كان فلسطين المحمولة عبر الأثير إلى العالم، مثلما هي قصائد محمود درويش وروايات إميل حبيبي».

غازي الذيبة

• «لم تكن لوحات شموط مجرد إبداعات فنية فحسب، بل هي في حقيقتها رسائل محبة وسلام موجهة لكافة شعوب الأرض، ممهورة بتوقيع فلسطين، مسرى محمد، ومهد عيسى، وفردوس كل أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام».

نبيل خالد الأغا

• «بلوحاتك استطعت أن تبقي لنا وللجميع ما ألمَّ بشعبنا من مآس وآلام عجزت الكاميرات عن توثيقها، وأبقيت على حلمك بالنصر والعودة، إذ كان همك الحفاظ على الهوية الوطنية، فجعلت من لوحاتك وطناً يعيش فيه كل من شاهدها أو اقتناها».

يزيد إسماعيل شموط

• «ماذا يمكنني أن أقول عن إسماعيل الحبيب والزوج والأب والجد؟، ماذا أقول عن أخلاقه ومعاملاته؟، وماذا أقول عن لياليا المملوءة طرباً وأدباً وفناً؟، لقد حاولنا أن نصنع الجمال لتعلو لوحاتنا بموسيقاها فوق كل البشاعات لتستمر أغنية الحياة».

تمام الأكحل شموط

شموط في الدوحة: اللوحة بالنسبة لي خطاب سياسي إنساني ولكن بلغة تشكيلية

المراجع:

1. موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر/ سلمى الخضراء الجيوسي (النثر) ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت 1997م.
2. وجوه فلسطينية خالدة/ نبيل خالد الأغا/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ دار الفارس/ عمان 2002م.
3. موقع الفنان إسماعيل شموط، ومواقع أخرى على الشبكة العنكبوتية.
4. صحيفة الراية القطرية 2001/12/5، 2006/7/9م.
5. صحيفة الوطن القطرية 2001/12/1، 2006/7/5م.
6. صحيفة القدس العربي/ لندن 2006/7/7م.